والويل، إذن، لمن يتلفّظ باسمه، فإنّه يَتَماهى معه، ويُصبح ملعوناً مثلَه. فكيف، إذن، تكونُ حال من يتحدّث عنه باحترامٍ، ودقّةٍ، وموضوعيّة؟

«العدوّ الفكري» في هذا التّقليد المشؤوم، يجب محوهُ أو حَرْقُه، بشكلٍ أو آخر.. وإذا تعذّر ذلك، فلا بدّ من تشويهه أو تأويل ما يقوله بطريقةٍ تُخرجه عن مقاصده الأصليّة، وتؤدّي إلى إخراجه من تراث الأمّة.

لهذه المُمَاهاةِ مع «الشرّ» أو ما يُظنّ أنه كذلك، ما يناقضُها، كما هي الحالُ في العقليّة السحريّة البدائيّة، وهي المُماهاةُ مع «الخير» أو ما يُظَنّ أنه كذلك. يكفي أن يكتبَ أحدهم عن «بطلٍ» أو «قضية» وطنيّة لكي تُماهيه بهما، ونُطلق عليه أوصافَ البطولة والوطنيّة.

ولعلّك تذكر، فأنت عارفٌ بذلك وشاهدٌ عليه، أنّه كان كافياً أن أهدي، مجرّدَ إهداء، قصيدة «مقدّمة لتاريخ ملوك الطوائف»، تحيةً وإعجاباً ووفاءً لِدَيْنٍ كريم تعرفه أنتَ شخصياً، إلى القائد الرّاحل جمال عبد الناصر، حتّى أصبح في نظر أعدائه، خصوصاً، «ناصريًّا» ومن دُعاةِ «النّاصريّة».

لعلّك تذكر أيضاً، في إطار هذه العقليّة السحريّة البدائيّة، أنّ المرحوم شفيق الكمالي، وزير الثقافة السّابق في العراق، كان يُجيبُ من يسأله حول منع كتب أدونيس من الدّخول إلى العراق: «لا تسألني، فلو كان اسمُ أدونيس على القرآن نفسه، لمنعناه من الدّخول». فأنا، في نظره، متماهٍ - إسماً وقولاً - مع «الشرّ» المطلق!

وقد دفعتُ الثمنَ غالياً، هنا وهنالك. ولستُ نادماً على ذلك. إنني، على العكس، أعْتَزُّ به.

* * *

ليست مقدّمتي لكتاب محمد بن عبد الوهّاب إلاّ فصلاً من كتاب **الثابت والمتحوّل** (الطبعة الجديدة، بأجزائها الأربعة، دار السّاقي، بيروت ١٩٩٤). وقد صدرتْ مع مختاراتٍ من كتاباته، عن دار العلم للملايين، ضمن مشروع عن مفكّري «عصر النهضة» (وأنا أوّل من نقدَ هذه التّسمية، ودعا إلى تغييرها)، سمّيناه «ديوان النهضة». وقد صدرتْ، إلى جانب هذا الكتاب، كتبٌ أخرى عن محمد عبده، والكواكبي، ورشيد رضا، وشوقي، والزّهاوي. وجميع مقدّماتي لهذه الكتب فصولٌ من كتاب **الثابت والمتحوّل**.

وبما أنني أحرص بدئيًّا، وأقصى الحرص، على الخروج من ذلك التّقليد الثقافي المذهبيّ المشؤوم، فقد قدّمتُ الوهّابيّة بموضوعيّةٍ كاملة، وشرحتُ موقفها من داخل - موضحاً أنّ ما أقوله هو ما يبدو لي مِنْ خَلَلِ النّظرة الوهّابيّة، مُمْعِناً في صِدْق الموضوعيّة وشفافيتها. وقد طرحتُ عليها، بعد عَرضِها، أسئلةً تُظهر مَدى الخللِ فيها، ومدَى انفصالها عن الواقع المعيشي الحيّ. لكنّ السيد الدكتور تعامى كليًّا عن هذه الأسئلة.

إلى أدونيس

عزيزي أدونيس،

تحية وشوقاً ومحبة،

أودُّ أن أحيّي أولاً قرارك بأن تردّ على منتقديك. فهذه «المعركة» التي كنتَ ومازلتَ مِحْوَراً أساسياً من محاورها، لا يجوز أن تبقى في منأى عنها طوال هذه الفترة. فابتعادُك عنها - «ترفُّعاً» أو «تجاهلاً» - خسارةٌ للحقيقة التي هي في النهاية نتيجةٌ لأفكار واجتهاداتٍ متعدّدة، أيّاً يكنْ خلافُنا مع هذه الأفكار والاجتهادات مادامتْ حريصةً على الموضوعيّة.

ومن هذا المنطلق عينه، رأيتُ مِنْ واجبي - و«تبياناً للحقيقة، واحتراماً لأصدقائها /أصدقائي» (كما تقول أنت) - أن أنشر عيّنةً من الردود على ما أثارتْه مقالتُك المنشورة في **الآداب** في العدد العاشر من السنة الماضية وما أثاره حضورُك لمؤتمر غرناطة. واسمحْ لي، يا عزيزي أدونيس، ألاّ أشاطرك الرأي في ما ذهبتَ إليه في رسالتك الطويلة، من أن تلك الردود ليستْ أهلاً باسمها، وليست أهلاً بالثقافة ولا حتى بالكتابة. فما تُراك كنت تريدنا أن نسمّيها: «تهجّمات»، «تجريحات»، «إهانات»؟ واسمحْ لي أيضاً أن أنعتَ هذه الردود - رغم خلافي مع بعض ما جاء بها، بل ورغم اعتراضي على الحدّة التي وسمتْ بعضها - بأنها جزء من المعارك الثقافية التي لا نخجل في **الآداب** مِنْ أن نفتح صدرنا لها.

لقد تمّ اصطفاءُ هذه الردود بوصفها أفضل ما وَرَدنا. بل لا نذيع سراً إذا قلنا إنّنا قد ضَرَبنا صَفْحاً عن عدد كبير من العبارات والجمل التي تحمل تهجّماً شخصياً عليك، وتحمّلْنا في ذلك غَضَبَ الكثيرين واتهامَنا بعضُهم بـ«المزاجيّة» و«الديكتاتوريّة»... والمرَض! ولكنّنا آلينا على أنفسنا أن نركب هذا المركب الوعر دون أن نخشى في ذلك لَوْمة لائم.

أنا لا «أتبنّى» جميعَ ما يُكتَبُ في **الآداب**، ولا «أتبنّى» ما كُتِبَ ضدّك أو جميعَ ما كُتب ضدّك، ولا أتبنّى - بالمنطق عينه - كُلَّ ما كتبتُهُ في **الآداب** وما تكتبه - مشكوراً - فيها. بل أنا أستغرب أن تتهمَني بالانحياز المهني إلى «خصومك» حين «أعطيتُهم صدرَ» المجلة (كيف تكون الصفحة ١٥ صدراً لمجلة، بالمناسبة؟ أليس أحرى بأن تسمّى بطناً؟!)، في حين أنّك تصدّرتَ حقاً عدداً سابقاً (الصفحة ٢ من العدد العاشر)، وتبوّأتَ «ذاكرة **الآداب**» قبل شهور... وأمّا الانحياز السياسي فذلك شأنٌ آخر، وأربأ بنفسي أن أخلط بين المستويين!

والغريب أيضاً أنّ واحداً من «خصومك» اتّهمنا بأننا نعاملك معاملة متميّزةً (ص ١٧ - هامش ٢، مِن العدد الماضي). فأيّكما نصدّق؟ وأيّكما نُغْضِب؟ وإلى أيّكما نتقرّب؟

عزيزي أدونيس،

المعارك الثقافية في وطننا، وفي كل مكان، قديمة وستستمر. آمل أن نبقى جزءاً منها، لأننا جزء من هذا الوطن. أعتذر عن كلّ ما قد تعتبره في ردودِ مَنْ «تبنيتُهُمْ» قدحاً شخصياً بكِ. وأتعهد أن أبقي صفحاتي - صدراً وبطناً - لكلّ الآراء الثقافية الرصينة، وأن أتدخّل - بوصفي صاحب المجلة - كلّما رأيتُ داعياً لذلك حرصاً على سلامة الحوار الثقافي واستقامته.

لك منّي كلّ الحب والصداقة والإعجاب، وإلى لقاء قريب.

سهيل ادريس